

المشاركة أم السيطرة

أ.د. لطيفة حسين الكندري

عندما يتصور شخص أنه يمتلك ناصية الصواب المطلق فيصبح وصيا على تصوراتك وتصرفاتك فاعلم أنه ليس جديرا بالقيادة.

شهد عالمنا العربي نشوء العديد من التيارات والجماعات وصارت الحركات الدينية والليبرالية والقومية وغيرها حاضرة في المشهد السياسي. تلك الحركات لها جذورها وأعلامها وتاريخها ومكاسبها ومشاكلها وآمالها. منذ القرن العشرين فشلت معظم تلك الحركات فشلا ذريعا في تحقيق أهدافها الإصلاحية الكبرى المعلنة، ولا زالت تعتقد أن السبب وراء فشلها بطش أو جهل الحكومات، ولكن الحقيقة قد تكون أكبر من ذلك. تشبعت العديد من الحركات بالسرية في التنظيم، وقامت بتكتيكات ومناورات سياسية لتمكين عناصرها في أماكن حساسة، وتحقق لها ما تصبوا إليه أحيانا، ولكنها في نهاية المطاف النهضوي أخفقت في كسب ثقة المجتمع لأنها تركز على عناصرها لا الكفاءات، ولأن برامجها ومناهجها غير فاعلة. الفكر الميكافيلي ينتقده الكل علانية ويمارسه البعض سرا أو جهرا لعل هذه المقولة تكون صحيحة في تفسير ممارسات العمل الحزبي لا سيما إذا وجد موطن قدم له.

أعتقد أن من أهم منزلقات العمل السياسي المرتبط بالجماعات والكيانات التنظيمية حرصها على قيادة المجتمع، والوصاية عليه، وعدم إيمانها الفعلي بالقيم الديمقراطية الدستورية. نحن في عصر يفرض علينا مشاركة الآخرين حفاظا على مبدأ التعايش والتنوع والأمن المجتمعي الذي هو أبرز مكون من مكونات الدولة المدنية. إن ذهنية السيطرة هي التي تتعامل مع المجتمع بدهاء وأنانية لتحقيق مصالح ضيقة وهذه الذهنية تجر الويلات لمجتمعاتنا. إن عقلية المشاركة والإيمان بالأطراف المجتمعية أولا، والتعايش معها ثانيا، والاستفادة منها ثالثا أضحت قضية مركزية لإيجاد تيارات وطنية إصلاحية تسع الجميع أو على الأقل الأكثرية.

إن المعلمين والآباء والسياسيين عليهم فهم طبيعة العصر الذي نعيش فيه فهو عصر يرفض بشدة التوقع وفرض الوصاية والتفرد في الإدارة. لا بد أن نوطن أنفسنا على حسن الاستماع وصدق المشاركة والابتعاد عن المصالح الفردية التي تصطدم مع جدار

الصالح العام. عقلية المشاركة هي العقلية التي تتعلم وتستفيد وفي نفس اللحظة تعلم الآخرين عبر عرض خبراتها لا فرضها. إن ذهنية السيطرة تأنف من الاستفادة من غيرها وترفض التعلم المستدام، وتريد توجيه المجتمع بل العالم بأسره وفق مرادها، وبغرض تحقيق مآربها الذاتية.

إن دور المثقف الحر أن يكشف زيف الشعارات التي تجعل الطاعة العمياء قناعاً لشل التفكير الناقد، ودور المثقف أيضاً أن يفضح أولئك الذي يستغلون الشعارات الإصلاحية للتكسب، والهيمنة على الفكر الجمعي. وفي هذا السياق فإن دور وسائل الإعلام التنوير والمساهمة في تنوع الخطاب وتوسيع نطاق الحوار، وإيجاد بيئات رحبة تؤمن بالحرية في نطاق الأمن المجتمعي وتنبذ فرض الآراء، وترفض حشد الشباب في حركات وتوجهات سياسية ظاهرها الإصلاح وباطنها السيطرة على مسارات المجتمع.